ازدواجّية أندلسّية – أصالة عبر الاتباع

فايز زعبي

قد يبدو مثيرًا لدرجة المفارقة أن طريق الأصالة في الأدب الأندلسي تمر عبر التقليد والمعارضة! يحدث هذا في بيئة خاصة ذات ظروف مميزة كالأندلس، وإن كنا نموضع هذه الظاهرة ضمن الإطار العام القروسطي لمفهوم المعارضة كأمر مقبول ومشروع.

لكن التعامل الأندلسي معها كان مميزًا، ويكتسب خصوصيّة استثنائيّة، نريد أن نفسرها بسمة " التوتر" المميزة لهذا الأدب، و" بالإزدواجية" التي نراها كصبغة طاغية على الأدب والفكر الأندلسيين حتى لا فكاك منها.

الإطار الأوسع لظاهرة كهذه هو قضية العلاقات المغربية الأندلسية– المشرقية، قضية أثارت إشكاليات عديدة وحساسة كالتأثيرات، السرقات الأدبية، المعارضات، الأصالة والتقليد، أدب"التخوم"، [1] وأدب المركز، الهوية الأندلسية الإقليمية مقابل التبعية المشرقية.

انعكاس جانبي آخر هو الجدل حول الهوية الإسلامية للأدب الأندلسي، حيث نجد هنري بيريس مثلا يجيّر كتابه عن الشعر الأندلسي لفكرة أنه كان " نتاجًا محليًا" [2]، أي لأصول إيبريّة– رومانية . وقد تابعه بروفنسال، حين أسس فرضيته على الازدواجية اللغوية[3]،فيما اعترف جيمس مونرو بأن القضية مركبة "تعتمد على الشكل، العصر، والاستعمال الفني الذي قامت به عناصرها المكونة"[4] .

الجيوسي ناقشت آراء كهذه، ونفت فكرة الإقليمية والانفصالية للأدب الأندلسي، وأكدت على الهوية المشرقية لهذا الأدب[5]؛ فهو ليس أدب تخوم، بل امتداد مشرقي كلاسيكي . (الجدل الكبير الذي أثير حول قضية الأصول في الموشحات الأندلسية — وما يزال — هو أكبر مثال على إشكاليات كهذه، أثارتها طبيعة هذا الأدب).

---

[1] Al – Jayyusi , S. k.,the Legacy of Moslim Spain, E. G. Brill, Leiden- New york – Koln 1992, pp. 320-321.

[2] Peres. H., La Poesie Andalouse en Arabe Classique au 11 Siecle, Deuxieme Edition, Librarie dAmeriqui et dOrient, Paris 1953, pp. 20

[3] Monroe J. T., Hispano Arabic Poetry, University of California, Press, Berkely- Los Angeles- London 1974, pp 6

[4] Ibid, pp. 6-7

[5] Al-Jayyusi, pp . 321

ما نرمي إليه في عجالة سريعة كهذه المقالة هو تسليط الضوء على جانب من هذه العلاقات: تنامي الشخصية الأندلسية، بروزها، واستقلالها، بل واعتزازها الأندلسي حتى من خلال معارضتها المشارقة.

ثمة خبر يسوقه المقّري (1041 هـ) في "النفح " [6]، وابن دحية (633 هـ) في "المطرب" [7]، عن رحلة للمشرق، قام بها شاعر أندلسي شهير هو يحيى بن الحكم الجياني [8]، المعروف بالغزال (250 هـ) ، تختلف الأخبار حول تاريخها، ومكانها، وحقيقتها، لكن تربطها بزرياب الموسيقار الشهير الذي استقبله عبد الرحمن الأوسط (أمير الأندلس الأموي في السنوات 206– 238 هـ) منافسًا به المشارقة [9].

ما يعنينا هنا– عدا الخبر نفسه – هو رواية صاحب "المطرب" : الأسلوب والطريقة اللذان عرض بهما الخبر، وهو ما يكشف لنا الكثير من نظرة المغاربة للمشارقة .

رواية المقري [10] متأخرة، تؤكد رواية ابن دحية وتثبّتها؛ فهي نسخة حرفية منها تقريبًا، ومن المؤكد أنه نقل الخبر عن ابن دحية السابق له .

رواية ابن دحية:

يفيدنا صاحب المطرب أن الغزال لم يطب نفسا بالمقام في الأندلس؛ فرحل إلى العراق،وذلك

---

[6] المقري ، أحمد بن محمد ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج7 ، طبعة البابي الحلبي، القاهره د.ت، ص 375 – 378

[7] ابن دحية، عمر بن حسن الكلبي، المطرب من أشعار أهل المغرب، ت . ابراهيم الأبياري وآخرون، إدارة نشر التراث القديم، القاهرة 1993 . ص 148 .

[8] الغزال، أشهر شاعر أندلسي قبل ابن عبد ربه، رائد تيار الحداثة في المغرب، هجّاء ساخر، منجم وحكيم. عنه : النفح ،ج7، ص 358 ؛ المطرب ، ص 133 ؛ والموسوعه الإسلامية –الطبعة الجديدة :

Miranda , Huici ," Al- Ghazal " , E.I. 2 , Vol. 2 . pp 1038.

وانظر عنه بتوسع دراستنا – وهي أطروحة ماجستير: يحيى بن حكم الغزال– رائد الحداثة والسخرية في الأندلس، جامعة حيفا، حيفا 2000

[9] تربط الأخبار بين رحلة الغزال و نفيه إلى المشرق، وبين عداوته لزرياب، وهجائه له؛ حتى شكاه لأمير قرطبة .

[10] نفح الطيب، ج7 ، ص375 – 378 .

وذلك بعد موت الحسن بن هانئ (أبي نواس) بمدة يسيرة . فوجدهم يلهجون بذكره ولا يساوون شعر أحد بشعره . فجلس يومًا مع جماعة منهم، فأزروا بأهل الأندلس، واستهجنوا أشعارهم، فتركهم حتى وقعوا في ذكر الحسن، فقال لهم: من يحفظ منكم قوله:

ولّما رأيت الشرب أكدت سماؤهم تأبّطت زقّي واحتسبت عنائي... إلخ

ثم يتابع ابن دحية، بعد أن ذكر أبيات أخرى من القصيدة (سبعة) :

"فأعجبوا بالشعر وذهبوا في مدحهم له كل مذهب . فلما أفرطوا قال لهم : خفّضوا عليكم؛ فإنه لي .فأنكروا ذلك، فأنشدهم قصيده الذي أوله :

تداركت في شرب النبيذ خطائي وفارقت فيه شيمتي وحيائي

فلما أتم القصيد بالإنشاد خجلوا وافترقوا عنه " [11].

يمكن ملاحظة ما يلي:

أ- واضح أن الحادثة تمت – إن صح هذا [12]– بعد سنة 199هـ بقليل، وهو التاريخ المفترض لوفاة أبي نواس .

ب- شهرة أبي نواس، ذيوع شعره وزعامته لمدرسة الحداثة الشعرية كانت طاغية بحيث فرضت نفسها — حتى بعد موته — على المشارقة المعجبين بشعره، وعلى المغاربة الذين تخذوه إمامًا، ومثالًا يطمحون لمعارضته .

ت- ازدراء المشارقة للمغاربة ولشعرهم، وتعصبهم للشعر المشرقي .

ث- الدونيّة، والتلمذة، هما ما ميّز الأدب الأندلسي نحو أستاذه المشرقي، رغم نهاية الخبر السعيدة، وانتصار الأندلسي الضيف .

ج- الغزال " شاعر الأندلس" ، [13] " شاعر ذلك الأوان"، [14] "حكيم الأندلس وشاعرها وعرّافها " ، [15] يطمح لنيل اعتراف المشارقة بشاعريته، عبر معارضته البارعة لخمريّة تعود لإمام الشعر في المشرق، وينجح بذلك.

---

[11] المطرب، ص148– 149 . وقد ذكرنا الخبر، على طوله، لأهميته . راجع رسالتنا المذكورة في الملاحظة 8 ، ص99، وما بعدها .

[12] كراتشكوفسكي، أ ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، تر . صلاح الدين هاشم، ط. 2 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987 ،ص27 (حيث يجيز أنها من القصص الخرافية) ; عباس ، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي– عصر سيادة قرطبة ، ط. 7 ، دار الثقافة، بيروت 1985 ، ص158 .

الاعتراف بشاعرية شاعر الأندلس الأول لا يتم لبراعته في الابتكار، بل لنجاحه في محاكاة شعر أبي نواس ببراعة فائقة بحيث يشكل على معجبيه تمييز الأصيل من المقلد .

الأصالة هنا تكمن في المحاكاة الجيدة لأساطين الشرق، والشرعية تبدأ بعبور امتحان التلمذة على الأساتذة المشارقة . أما زعامة الغزال للشعر في الأندلس، فلا تقلل من ازدرائهم له .

ح- "الحج إلى المشرق" [13] لا يعني للأندلسيين مكة والمدينة فقط، ، بل الحواضر الإسلامية؛ وذلك لنهل العلم من مصادره، والأهم : لنيل الإجازة الأدبية . هذا ما نستشفه من الخبر، حتى لو عرضه ابن دحية بشكل فاز به الطالب على شيوخه.

خ- لا تقل أهمية عما ذكر طريقة عرض ابن دحية لخبر الرحلة، وحماسه لإثبات شاعرية الغزال، وبالتالي هويته ومقدرته الأندلسية . نفهم هذا على ضوء الإحباط الذي عاناه ابن دحية في المشرق — مصر — من عدم تقدير لمواهبه كأندلسي غريب، وتكذيب لروايته، كمحدّث وراوية . [14] ابن دحية يبرز الغزال بشكل درامي : يدخل متنكرًا، يتحمل الإهانة، ثم يفاجئ المشارقة بموهبته، فيفحمهم، والأهم : أن هذا يحصل في عقر دارهم — بغداد — وبتحدّ لإمام شعرهم (أبي نواس). لا يخفي ابن دحية نشوته بهذا الانتصار الأندلسي — وإن كنا لا نستبعد نشاط خياله المغربي؛ إذ لا نجد مصدرًا مشرقيًا واحدًا يذكر خبر زيارة كهذه [15] (مع ما للغزال من شهرة وذيوع) .

---

[13] نفح الطيب، ج7 ، ص358 .

[14] المطرب، ص133 .

[15] نفح الطيب،ج7 ، ص358 .

[16] أفرد المقري الفصل الخامس من النفح لذكر من رحل من المغاربة للمشرق لطلب العلم .

[17] راجع مقدمة الأبياري للمطرب خاصة تشكيك العلماء بمصداقيته، حتى لو وضعه الكامل الأيوبي سلطان مصر، على رأس مدرسة الحديث التي بناها بالقاهرة .

[18] راجع رسالتنا عن الغزال وشعره، ص100–102 .

ثمة خبر آخر انفرد به الحميديّ في "الجذوة" [19]، عن شخص "من أهل العلم"، قام برحلة للشرق يدعى سعيد بن أحمد بن خالد، قال الحميديّ أنه سمعه من بعض مشايخه . خلاصة الخبر أن سعيدًا هذا هو من شّرق، ولمصر – لا للعراق – وأنه هو من تصدى للمشارقة قارئا قصيدة للغزال، بعد أن نسبها لأبي نواس، وهذا خبر معقول قد يحل لنا إشكاليّة سفر الغزال لبغداد غير الموثوق بها . ليس الغزال من وصل إلى بغداد ربما، بل أشعاره؛ وإنما فاخر بها أندلسيون حملوها معهم– مثل سعيد هذا– حين سافروا إلى الشرق.

خبر الحميديّ مطابق لخبر ابن دحية، مع اختلافات طفيفة، مما يستدعي تساؤلات عن وجود تأثيرات أدبية. الحميديّ ينقل خبرًا يفيض بالترفع المشرقيّ، والإهانة للأندلسيين: "لا تخفى شعاركم إلى جانب شعارنا كما لا يخفى البدر في سواد الليل " [20]. قد لا نبعد إذا قلنا : إن الخبرين خبر واحد، وقد أفاد اللاحق منهما من السابق، علمًا أن الحميديّ (488هـ) أقدم، وأوثق رواية من ابن دحية ، [21] وإنّما تصرّف الأخير بالخبر، فنقل أحداثه إلى العراق تعصبًا منه للغزال –ابن بلده– واعتزازًا بأندلسيّته .

هذا "اللقاء" بين ابن دحية والغزال يلقي الضوء على نقطة بارزة من بحثنا هي تنامي الهوية الأندلسيّة، مشرعة الأدب الأندلسيّ وتعصب أهله له، بل بدء تحدي المغاربة للمشارقة: تحديهم دون تمرد عليهم سعيًا وراء أصالة أوسع مفهومًا مما سلف : أصالة تجمع بين معارضة نماذج الشرق (اتباع الموروث)، والابتكار المغربي (الموشحات، مثلا) وهذا يعيدنا إلى قضية الازدواجية الأندلسيّة التي نقول بها.

---

[19] الحميديّ، محمد بن فتوح، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، ت. محمد بن تاويت الطنجي، مكتبة الخانجي، القاهرة 1372ه ، ص212 .

[20] م.س ، ص355 .

[21] لمزيد من التفصيل راجع بحثنا المذكور في هامش 8 ، ص102– 103 .

تظّلم وشكوى –

نص آخر لابن دحية نفسه، [22] يفسر لنا إعجابه بالغزال، تعصّبه له، وثورته على المشارقة فهو يخرج عن طوره، إعجابًا وحنقًا، حين يعرض لقصيدته في " نود" ، زوجة ملك المجوس [23]:

إعجابًا بالشعر الذي " لو روي لعمر بن أبي ربيعة، أو لبشار، أو لعباس بن الأحنف ... لاستغرب له " . وحنقا؛ لتجاهل المشارقة لشعر الغزال . فهو يصرخ شاكيًا ثائرًا معبرًا عن إجحاف ألمّ بالأدب الأندلسيّ، وإهمال من القبول المشرقيّ، بدافع التعصب والكبرياء؛ وها هو يتظلم : "وإنما أوجب أن يكون ذكره منسيًا إن كان أندلسيًا، وإلا فما له أخمل وما حق مثله أن يهمل!؟ " [24] .

تتجاوز صرخة ابن دحية كل تلميح إلى التصريح، فهي شكوى ملتاعة رافضة للظلم اللاحق بإخوانه لمجرد أنهم أندلسيون . وهي ناعية على المشارقة ظلمهم وعدم موضوعيتهم . شكوى لا تخلو من اتهام واضح : " وهل نحن إلا نظلم في حقنا ونهتضم ! يا لله لأهل المشرق ! قولة غاصٍّ بها شرق . ألا نظروا إلى الإحسان بعين الاستحسان، وأقصروا عن استهجان الكريم الهجان، ولم يخرجهم الإزراء بالمكان عن حد الإمكان؟ " [25]

من النادر العثور على نص بهذه الصراحة، والشكوى المرة، والاتهام .

يحمل ابن دحية الكثير من الشعور بالظلم، ومعاناة من كيل المشارقة بمكيالين . الـ "إزراء بالمكان"، هذا هو لب القضية؛ وبالتالي :" يكون ذكره منسيًا إن كان أندلسيًا " .

---

[22] المطرب، ص144– 145 .

[23] وهي في رواية أخرى ساقها ابن حيان، ونقلها عنه المقري تدعى " تود" . وهي عند بروفنسال " ثيودورا " ، وإن كان هذا أنكر وجود سفارة الغزال إلى بلاد المجوس، أنظر : نفح الطيب، ج7 ، ص371 – 372 ؛ ج3 ، ص123 – 125 ، وانظر :

Levi Provencal, E, "Un Echange dAmbassades Entre Cordoue et Byzance au Lxe Siecle", Byzantion , 12 (1964), PP.1-24 .

[24] المطرب، ص145

[25] م.س

يُبرز ابن دحية جمال أبيات الغزال، ويثور : " فما له أخمل وما حق مثله أن يهمل " ؟ ويقوده هذا إلى الانتصاف للكرامة المجروحة، والرد بنغمة لا تخلو من عصبية أندلسية مضادة : "لئن أرهفت

بصائرهم البصرة، وأرقتها الرقتان؛ فقد درجنا نحن بحيث مرج البحرين يلتقيان ..."[26].

هذا الشعور بالظلم قد يفسر لنا " الإضافات " التي طالت خبر رحلة الغزال إلى المشارقة، منازلتهم في عقر دارهم، والانتصاف منهم . وليس ثمة ما يمنع من عقد توازيات — ولا نقول تأثيرات — بين هذا الخبر وبين أخبار عن تعصب علماء اللغة في الشرق للقديم، ورفضهم لشعر المُحدَثين (مثل إعجاب أحدهم بنص ظنه لقديم، حتى إذا عرف أنه لمحدث أفحم ، وغير رأيه)

ابن دحية ليس وحيدًا في تظلماته، وشعوره أن الأدب المشرقي يضع كل إنجازاته في الظل،[27] فهذا ابن حزم (456 هـ) يفخر ويشكو معًا :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكري النهب..
هنالك يدري أن للبعد قصة وأن كساد العلم آفته القرب[28]

فهو لا يقل براعة عن المشارقة لكن عيبه أن "مطلعه الغرب" . ابن حزم يشكو، ويتهم التجاهل والتعالي المشرقيين، يشكو إهمالهم للمغاربة الذين لا يقلون موهبة وإبداعًا عن إخوانهم .

وهذا ابن بسام يطلق مقولته الشهيرة ناعيًا على قومه تبعيّتهم للمشارقة: "إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا

---

[26] م.س . ويستشهد ابن دحية بأبيات لشاعر أندلسي تعبر عن شعور مشابه بالظلم : " فلا تحسدونا" و " فلا تظلمونا في القليل الذي لنا"

[27] نظرة "المركز الشرقي" إلى أدب إسبانيا كانت مترفعة، فهو "مجرد ظاهرة إقليمية محلية"، واطئة المستوى : كراتشكوفسكي، أ . ، الشعر العربي في الأندلس، تر . محمد منير موسى، عالم الكتب، القاهرة 1971 ،ص10 .جملة الصاحب بن عباد مشهورة، حين وصله كتاب ابن عبد ربه .

[28] إحسان عباس، ص415– 416 ؛ الحميدي، جذوة المقتبس، ص292 .

صنمًا، وتلوا ذلك كتابًا محكمًا"، بينما "أخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرزية" ، [29] ثم يتساءل محتجًا : "وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان وخص أهل المشرق بالإحسان؟" [30] .

– يكتب الأديب الأندلسي بشعور مزدوج : لا بد من تقليد المنابع الشرقية ، ولكن هل كتب عليه أن يظل يلتهم فتات مائدتهم ؟ ألا يمكن أن يعتمد على نفسه؟ وكيف يحظى بتقدير المشارقة كنّد لهم ؟ الجانب النفسي الذي يحس به هذا الأديب حين يكتب هو نقطة مهمة جدًا، وهو ما أثار كلّا من ابن دحية وابن بسام وابن حزم [31]، والشاقندي [32] (629 هـ)، فكتبوا محتجّين، مطالبين بالعدل، بل ومفاخرين .

الاتّباع والتقليد، في سبيل الاعتراف –

لم يتعيب الأندلسيون بالمحاكاة والتقليد، فهاتان لم تكونا مقياسًا للأصالة في ذلك العصر [33]، فلم يطمحوا بأكثر من المساواة والإنصاف، حتى القرن الرابع الهجري على الأقل : فابن عبد ربّه يضع شعره بإزاء شعر المشارقة، في "العقد" ؛ والحميديّ، إذ يترجم للرماديّ يقول : "فتح الشعر بكندة وختم بكندة" [34]، أي مساويًا بين امرئ القيس، والمتنبي، والرمادي الأندلسي (403 هـ) . كان مهمًا، كما رأينا، أن تُذكّر المصادر الأندلسية بمدح المتنبي لشعر ابن عبد ربه، ومساواة الثعالبي في "اليتيمة" لابن درّاج بالمتنبي، وهو ما

---

[29] ابن بسام، علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط1 ، ت سالم البدري، ج1 ، دار الكتب العلمية، بيروت 1998 ، ص3– 4 .

[30] م.س، ص4 .

[31] عن رسالة ابن حزم أنظر : "رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها" ، في ملحق كتاب إحسان عباس، مرجع مذكور سابقًاص347 .

[32] عن رسالة إسماعيل بن محمد الشاقندي "في فضل أهل الأندلس،" أنظر : الشكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي– موضوعاته وفنونه، ط 4 ، دار العلم للملايين، بيروت 1979 ، ص619 .

[33] شلبي، سعد إسماعيل، دراسات في الأدب الأندلسي، دار نهضة مصر، القاهرة 1973، ص64– 66.

[34] جذوة المقتبس، ص346 – 347 .

أطرب ابن سعيد الأندلسي حتى صاح : "كفانا من الافتخار أن الثعالبي ... إلخ" [35]. سعيهم للمساواة كان مهمًا في سبيل نيلهم للاعتراف . احتذاء المشارقة، حتى القرن الرابع، لم يكن عيبًا، وان أثار غضب ابن بسام؛ فقد كان إحساس الأندلس بتبعيّتها للشرق، واعتمادها عليه، إحساسًا مسلمًا به، ولا جدال فيه [36]. ولم ير غومث فيهم أكثر من تلامذة فاشلين ذوي شعر "فقير جدًا من الناحية الذهنية والتفكيرية". [37]

وقد لخص د. عتيق أربعة من وسائلهم لاستقدام الثقافة المشرقية.[38]

نماذج للتمثل بالمشارقة نجدها في:

1- كتب راحوا يؤلفونها على نمط نماذج مشرقية :

فابن فرج الجياني يؤلف "الحدائق"، مقلدًا ابن داود في "الزهرة" .

وابن عبد ربه يؤلف "العقد"، مقلدا ابن قتيبة في "عيون الأخبار" .

وابن بسام يؤلف "الذخيرة"، مقلدا الثعالبي في "اليتيمة" .

2- نعوت مشرقية تمثلوا بها، فتلقب ملوكهم بنعوت خلفاء العباسيين : كالمستنصر والمعتمد، مما أثار غضب بعضهم فقال معاتبًا:

مما يزهدني في أرض أندلس تلقيب معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخًا سورة الأسد[39]

وتسمت مدنهم بأسماء مشرقية : فإشبيلية هي حمص؛ فيما تلقب شعراؤهم بأسماء شعراء مشارقة: فابن زيدون بحتري الأندلس، وابن هانئ متنبي الأندلس [40].

---

[35] الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج2 دار الكتب العلمية، بيروت 1983 "كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام"؛ ابن سعيد، علي بن موسى الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، ج2 ،خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1997 ، ص50 .

[36] ليفي بروفنسال، أ. ، سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها، تر . م. ع. شعيرة، المطبعة الأميرية، القاهرة 1951 ،ص6، 18 ، 22 .

[37] غومث، جارثيا، الشعر الأندلسي، تر. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1956 ، ص25 .

[38] عتيق، عبد العزيز، الأدب العربي في الأندلس،ط2، دار النهضة العربية، بيروت1976،ص151-156.

[39] كراتشكوفسكي، الشعر العربي في الأندلس، ص11 .

3- شعراء أندلسيون يتوجهون للشرق، يقابلون أدباءه، ويحضرون معهم كتبهم وأساليبهم، كما فعل عباس بن ناصح مع أبي نواس، حيث نشر مذهب الحداثة في الغرب [39]. لقد اعتمدوا على الشرق؛ لأن الشرق حضارة وثقافة. [40] ثم إن التراث الأدبي في أنحاء الأقطار الخاضعة للثقافة العربية كان واحدًا . [41] وهذا ابن عبد ربه يعترف بفضل المشارقة :

ديننا في السماع دين مديني وفي شربنا الشرب عراقي [42].

المعارضة والتقليد –

اهتموا بالمعارضة كوسيلة لإثبات البراعة، وإظهار الجودة، بل التحدي . شاهدنا ذلك عند الغزال، وعند ابن عبد ربه الذي يعارض قصائد مشرقية ليثبت كفاءة المغاربة، بل إن تقليده أفضل من الأصل كما فعل مع أبيات لمسلم بن الوليد. [43]

لقد ميّز ابن عبد ربه بين سرقة سيئة واضحة عند عديمي الصناعة، وسرقة حسنة، وهو ما فسره مونرو بأنه يتناسب مع مبدأ الإبداع الكلاسيكي أي فكرة المحاكاة اليونانية (ميميزيس)،حيث المحاكاة ليست في تقليد الطبيعة، بل شعر الشعراء السابقين لك . تلك هي الأصالة . [44]

المعارضات صارت رياضة فنية، وامتحانًا للجدارة، وميدانًا للتحدي .

---

[40] عنها وعن مجمل تأثرهم بالمشرق انظر : الباب الثالث، من الجزء الأول، من كتاب، الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر ،

Peres , pp 47- 50 .

[41] מונרו , ג.ט,. "השירה הספרדית _ערבית בתקופת החליפות של קורדובה" הספרות , 21 (1975), עמ, 102

[42] عصر_سيادة_قرطبة، ص 39 .

[43] كراتشكوفسكي، الشعر، ص123 .

[44] מונרו , עמ 102

[45] שם , עמ 103 . وعلى هذا الأساس يمكن رؤية معارضات ابن شهيد لأبي نؤاس وغيره في "التوابع والزوابع" .

[46] שם .

تتجلى النظرة المزدوجة للمعارضة والأصالة عند ابن شهيد، الذي يستسيغ الأخذ من السرقات إذا أحسن المرء ذلك ، ولكنه– من جهة أخرى – ينعى على الأندلسيين تقليدهم للمشارقة، بل إنه يخرج على مفهوم الأصالة السائد؛ يرى أن بالإمكان الجمع بين التقليد والإبداع الأصيل.[47]

مع ذلك ساد إعتقاد بأن الأصالة (بمعنى الابتكار الخالص، والتجديد الشامل) "لا وجود لها في الأندلس"، كما يجزم د. شلبي في شيء من المبالغة .[48]

قسم لا بأس به من المعارضات تم بتوجيه من الساسة، فهذا ابن درّاج يعارض رائيّة أبي نواس في مدح الخصيب؛ بناء على طلب المنصور أبي عامر، الحاجب .[49]

اعتزاز أندلسي، تحدٍّ، ومنافسة للمشارقة–

ترى الجيوسي بداية الإنتاج الذاتي الأندلسي زمن عبد الرحمن الأوسط (تولى من 206– 238 هـ)

لكن الإبداع الحقيقي لم يبدأ قبل القرن الرابع، [50]أي زمن الحكم المستنصر، ومع عصر الحجابة . أما القرن الخامس فهو "أكبر إشراق شعري بلا شك" ؛[51] فمنذ هذا العصر تظهر المجاميع التي تهتم بالأدب الأندلسي، وتترجم لشعرائه، ونجد الشعراء يتمثلون بكبار شعرائهم الأندلسيين، لا بالمشارقة، كنوع من الاعتزاز بموروثهم الجديد .[52]

استقدم المغاربة أساطين الأدب والعلم من الشرق واحتفوا بهم كثيرًا : فالأمير عبد الرحمن الأوسط يستقبل زرياب الموسيقي خارج قرطبة؛ والشاعر ابن درّاج يستقبل صاعدًا الأندلسيّ الذي قدم من بغداد(سنة 380 هـ)، بقصيدة مهمة.[53] أما الرماديّ (403 هـ)،

---

47 מונרו , עמ 109 – 110 , وانظر: Monroe ,Hispano . pp. 15.

48 شلبي، ص64 .

49 يتيمة الدهر ، ج2 ، ص129 .

50 Al- jayyusi , PP. 328 .

51 بروفنسال، سلسلة محاضرات، ص14 .

52 شلبي، ص68 .

53 كراتشكوفسكي، الشعرالعربي، ص35 .

الشاعر والوشاح، فيستقبل أبا علي القالي، اللغوي (سنة 330 هـ)، معلنًا أن الأندلس شبت عن طوق الشرق :[54]

فالشرق خال بعده فكأنما نزل الخراب بربعه المأهولِ

وكأنه شمس بدت في غربنا وتغيبت عن شرقهم بأفولِ

والقالي نفسه – حين زار بغداد – مقَتَها، وعافَ مصر، وفضّل المغرب:

وجزتُ على مصر فغمضت مقلتي وقلت بعنف : مغرب الشمس يا حادي[55]

هذه الثنائيات : شرق — غرب يُكثر الشعراء من التلاعب بها محاولين إزالة الفكرة السائدة عن سلبية الغرب — الغروب؛ فابن بقّي، في موشحة مدحية يقول :

أما ترى أحمد في مجده لا يُلحقُ

أطلعه الغرب فأرنا مثله يا مشرقُ[56]

وهو نفسه القائل :

أنا امرؤ إن نبت بي أرضُ أندلسٍ جئت العراق فقامت لي على قدم

وابن زيدون يتغزل : "**يا قمرًا أطلعه المغربً**"[57]

أما عن الموشحات التي ربما كانت أهم إبداع أندلسي محلي، فنجد ابن دحية في معرض حديثه عن موشحات ابن زهر : "وهي زبدة الشعر وخلاصة جوهره وصفوته وهي من الفنون التي أغربت بها أهل المغرب على أهل المشرق، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق".[58]

وقد احتفى كثيرون مثل ابن دحية بانفراد الأندلس بهذا الإبداع : "نهج أهل الأندلس طريقتها ووضعوا حقيقتها".[59]

---

[54] جذوة المقتبس، ص347 .

[55] المغرب، ج1 ، ص144 .

[56] السقا، مصطفى، المختار من الموشحات الأندلسية، دار الكتب المصرية، القاهرة 1997 ، ص 218 .

[57] المغرب، ج1 ، ص30.

[58] المطرب، ص204 .

[59] الذخيرة،ج1 ، ص292 .

ما إن ينفلت المغاربة من وطأة الأستاذيّة المشرقيّة، حتى تقودهم أنفتهم إلى إعلان التحـدي . يعلق المعزّ لدين الله الفاطمي، حين تبلغه وفـاة ابـن هـانئ (263 هــ) آسـفًا : "هـذا رجل كنا نود أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يتح لنا" . [60]

يسوق الحميديّ [61] خبرًا عن شعر، لمشرقي، أُنشد بحضرة ملك أندلسي؛ فأفرط الجالسون في مدحه وقالوا : هذا ما لا يقدر عليه أندلسي . وكان بالحضرة الشاعر يحيـى بـن هـذيل (389 هـ)، فارتجل على البديهة معارضًا للشعر بشعر مبدع . ومع أن الحميديّ لم يعلـق على الخبر، إلا أن إعجابه وإيحاءه بالكبرياء والمنافسة لا يخفيان .

منذ القرن الحادي عشر الميلادي تقف الأندلس على قدميها، تضارع المشرق، وتنافسه كمـا نلاحظ في كتابات ابن بسام، والفـتح بـن خاقـان، وابـن حـزم، وغيرهـم . نكتفـي بأمثلـة أربعة :

المثال الأول– لابن بسام يقول معتزًا، ومفاخرًا بـأن "أهـل هـذه الجزيـرة مـذ كـانوا رؤسـاء خطابة ورؤوس شعر وكتابة ... وأشرقوا فبـاروا الشـموس والبـدور" [62]، وبعـد أن يسوق شهادة لأبي علي القالي– حين رحل للأندلس – بذكاء أهلـها [63]، نجـده يشتطّ مبالغًا (مثل ابن دحية) بمذهبه في كتابه :"ما لعلّي سـأربي بـه علـى أهـل المشرق". ولكنه يعود للموضوعية معترفًا للمشرق بالفضل . [64]

المثال الثاني– متأخر، من عصر الموحدين: فـالوزير أحمـد بـن طلحـة، أبـو جعفـر يـوبخ مواطنيه: "تقيمون القيامة لحبيب والبحتري والمتنبي، وفي عصركم من يهتدي إلى ما لم يهتدوا إليه؟" [65]

---

[60] كيلاني، كامل، نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1924 ، ص130 .

[61] نفح الطيب، ج3 ، طبعة إحسان عباس، بيروت 1968 ، ص153 .

[62] الذخيرة، ج1 ، ص5

[63] م.س, ص6 .

[64] م.س، ص6–7 .

[65] نفح الطيب، طبعة إحسان عباس،ج3، ص307.

المثال الثالث– من "مطمح" ابن خاقان (529 هـ). جولة سريعة تلخص لنا هذا التوجه الجديد: يقول عن ابن هانئ : "زهت به الأندلس وتاهت، وحاسنت ببدائعه الأشمس وباهت، فحسد المغرب فيه المشرق، وغص به من بالعراق وشرق".[66] وعن الرماديّ (403 هـ) معاصر المتنبي، يقول: "وما قصّر عنه في إحسان، ولا جاز بينهما تفضيل إنسان"،[67] أما عن ابن حزم، فـ "ما تمنت به الأندلس أن تكون كالعراق، ولاحنت الأنفس معه إلى تلك الآفاق".[68] ابن عبد ربه شهد له المتنبي: " والله لقد يأتيك العراق حبوًا "،[69] وابن شهيد "لا يقاومه عمرو بن بحر" [70]، أي الجاحظ .

المثال الرابع– لابن دحية، فنونيّة ابن زيدون "نزعت منزعًا قصّر عنه حبيب، وابن الجهم"؛[71] وينقل عن الحميدي أن ابن حزم كان يقول : "لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن درّاج لما تأخر عن شأو حبيب والمتنبي" .[72]

الأمثلة السابقة — ومثلها كثير — هي أقرب إلى المبالغة والتطرف، ولا تخلو من تعصب أندلسي واضح؛ وهي رد فعل واضح على التعالي والاحتقار المشرقيين لكل ما هو أندلسي .

هي، برأينا لا يبعد أن تكون ناتجة عن واحد من اثنين:

أ- الشعور بالجدارة والبراعة والقدرة على المنافسة والتحدي.

ب- الشعور بالنقص.

---

[66] ابن خاقان، الفتح بن محمد الإشبيلي، مطمح الأنفس ومسرح التأ نس في ملح أهل الأندلس، ط1، ت محمد علي شوابكة، دار عمار _ مؤسسة الرسالة، بيروت 1982، ص322 .

[67] م . س، ص312.

[68] م. س، ص279 .

[69] م. س، ص273.

[70] م . س،ص189.

[71] يريد أبا تمام(231ه)، وعليًا بن الجهم(249 ه) ،المطرب،ص164 .

[72] م . س،ص156. وأحمد بن دراج القسطلي (420ه) شاعر كبير،ترجم له الحميدي في الجذوة،ص102 .

إجمال : أصالة على الطريقة الأندلسية

نشأ الأدب الأندلسي، وشبّ في أرض غريبة، بعيدًا عن مركز العالم الإسلامي، فكان طبيعيًا أن يتعلق هذا الأدب بمثيله المشرقيّ، يستمد منه مادته، لغته ومضامينه، يقلد نماذجه، يعارضها، ويتمثل بها، بل يعترف له بالتفوق والأستاذية .

من جهة أخرى، كان طبيعيًا أن يراعي هذا الأدب طبيعة البيئة الجديدة، وظروفها الخاصة في التطور . هذا التوجه تمثل في شعور الأدباء بأندلسيتهم، في تنامي ثقتهم بأنفسهم، في استقلاليتهم ونزوعهم للتمّيز والابتكار .

كان عليهم، أولاً إثبات جدارتهم وبراعتهم من خلال تقليد النماذج الكبيرة في الشرق،وذلك بهدف نيل الاعتراف من أساطين الثقافة المشرقية. عاش الأديب الأندلسي،إذن حالة من الازدواجية لم تبارحه طيلة مكوثه في الأندلس ؛ فتوزعت نفسه بين اتّباع للنماذج المشرقية، وبين محاولات إبداعية فردية يؤكد بها شخصيته وذاتيته . هذه الازدواجية تجلت في مجالات عديدة :

نجد شعراء "كلاسيكيين"، مثل ابن دراج وابن هانئ، إلى جانب شعراء "محدثين" ، مثل الغزال وابن عبد ربه . نجد مؤلفين يقدسون المؤلفات المشرقية، ويؤلفون على شاكلتها (كابن عبد ربه، في عقده)، مقابل مؤلفين يحذرون أبناء قومهم من هذا التقليد، داعين إياهم للاعتزاز بأندلسيتهم، والاعتماد على أنفسهم (لاحظنا ذلك، خاصة عند ابن حزم، ابن بسام، وابن دحية) .

نجد في الأندلس محافظة شديدة (تمثلت في سيطرة المذهب المالكي المتشدد فقهيًا، في اهتمامهم بالدراسات اللغوية والنحوية، في تحكيمهم – غالبًا — لمعايير دينية وأخلاقية، عند نقدهم للأدب ..) بالمقابل نجد تسامحاً، وحرية أديان،وازدهارًا للهو والطرب، وثورة شكلية وعروضية في الشعر،

تمثلت في الأزجال والموشحات، وهي قمة الابتكار الأندلسي . (يضاف لهذا ، تجديداتهم المضمونية في رثاء المدن والممالك، في وصف الطبيعة والبحريات) .

كان هذا أدبًا أصيلاً في ابتكاره للموشحات والأزجال، حقًا . وكان بالأصالة ذاتها (أو هكذا ظهر لأصحابه) حين عارض النماذج المشرقية الراقية (أبا نواس، المتنبي، المعري...) .

لم ير الأندلسيون في المعارضة والتقليد عيبًا، بل بالعكس، رأوا في ذلك مقياسًا للبراعة والأصالة .إنها أصالة عبر التقليد. شاهدنا ذلك عند الغزال معارضًا شعر أبي نواس، متحديًا للمشارقة، حسب خبر ساقه ابن دحية . ابن شهيد، في نقده وفي إبداعه، يجسد هذه الازدواجية[73]،أيضًا.

أخيرًا، مفهوم الأصالة في تلك الفترة لم يكن واضحًا[74]، فقد كان القديم الموروث نبراسًا وتحديًا، بل شرطًا لا غنىً عنه لإثبات الجدارة والبراعة، وبالتأكيد لم يشكل احتذاؤه عيبًا.

---

[73] دعا ابن شهيد للأصالة والابتكار، وأخذ على الشعر الأندلسي قلة أصالته وتقليده، وكان بدوره ذا أصالة (في أشعاره، وفي إبداعه المتميز " رسالة التوابع والزوابع"، لكن هذا لم يمنعه من تقليد المشارقة ومعارضتهم، أنظر: الذخيرة، ج1، ص 148-151؛ شلبي، دراسات، ص 64 ؛ מונרו, עמ 109 .

[73] دعا ابن شهيد للأصالة والابتكار، وأخذ على الشعر الأندلسي قلة أصالته وتقليده، وكان بدوره ذا أصالة (في أشعاره، وفي إبداعه المتميز " رسالة التوابع والزوابع"، لكن هذا لم يمنعه من تقليد المشارقة ومعارضتهم، أنظر: الذخيرة، ج1، ص 148-151؛ شلبي، دراسات، ص 64 ؛ מונרו, עמ 109 .

[74] عرض فؤاد زكريا للأصالة، وخلص إلى أنها مرتبطة بعنصرين : أ- الابتكار والإبداع ب- البعد الزمني.فهي تستمد من الماضي والتراث، أنظر : زكريا، فؤاد، " الأصالة والتراث "،فصول، م1، ع1،(1980) , ص30.

[74] عرض فؤاد زكريا للأصالة، وخلص إلى أنها مرتبطة بعنصرين : أ- الابتكار والإبداع ب- البعد الزمني.فهي تستمد من الماضي والتراث، أنظر : زكريا، فؤاد، " الأصالة والتراث "،فصول، م1، ع1،(1980) , ص30.

תקציר

לכאורה, זה נראה אירוני . שיוצר מנסה להיות "מקורי" דרך חיקוי של יצירות קדומות ידועות.

זאת הייתה דרכם של יוצרים אנדלוסים שדאגו לקבל "הכרה מהמרכז" של התרבות הערבית – אסלאמית (בגדאד, בעיקר)

החיקוי של יצירות מופת לא נחשב פסול, יתרה מזאת החיקוי נחשב כרצוי . זאת הייתה דרכם של המשוררים לקבל גושפנקה מהמרכז .

באמצעות כמה דוגמאות של משוררים ומלומדים אנדלוסים בעיקר,הועלה הויכוח על ערכה ומקוריותה של שירת אל-גזאל(250 להיגרה).

במאמר זה ננסה להבין את פשרה של אירוניה זו, ולהסבירה באמצעות שתי תכונות שאפיינו את הספרות האנדלוסית, לאורך דרכה : " מתח " ו " אמבולנטיות " .

זאת ספרות שסבלה מ"נחיתות" ו"שוליות", לעומת הספרות שבמזרח, ספרות שדאגה תמיד להוכיח את עצמה, ולמצוא חן בעיני המזרחיים .

המשמעות של המקוריות, אם כן היא להוכיח הצטיינות בחיקוי/ מועארצ'ה , וחריצות של הליכה בדרך המזרח . זה היה שלב ראשון וחשוב אבל אינו היחיד, שכן רבים מרדו, המרידו והתלוננו נגד הקיפוח המזרחי,השאננות ,וההתעלמות .גם כן , אחדים נזפו בבני עמם שהרגישו בנחיתות ודרשו מהם להוכיח את עצמאותם ומקוריותם , אפילו את עליונותם על ספרות המופת המזרחית . דוגמאות טובות לכך מצאנו למכביר אצל אבן דחיה , אבן בסאם , אבן חזם ואחרים מהיוצרים והמחברים האנדלוסים .

הספרות הזאת נשארה ספרות מתוחה חסרת זהות ועצמאות, וכן סבלה ממתח ויחס דו ערכי לספרות המרכז שבמזרח : מצד ראתה בו דוגמא לחיקוי, ומצד שני ניסתה להתעלות ולהתבלט (דוגמא בולטת היא כמובן המוושחאת)

المراجع

أ- بالعربية

1- ابن بسام، علي الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1 ، ت . سالم البدري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1998 .

2- ابن دحية . عمر بن حسن الكلبي، المطرب من أشعار أهل المغرب، ت . ابراهيم الأبياري وآخرون، إدارة نشر التراث القديم، القاهرة 1993 .

3- ابن خاقان، الفتح بن محمد الإشبيلي، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، ط1، ت. محمد علي شوابكة، دار عمار – مؤسسة الرسالة، بيروت 1982 .

4- ابن سعيد، علي بن موسى الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، ج2 ، ت. خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1997 .

5- الثعالبيّ، أبو منصور عبد الملك، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت 1983 .

6- الحميديّ، محمد بن فتوح، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، ت. محمد بن تاويت الطنجي، مكتبة الخانجي، القاهرة 1372ه .

7- الزعبي، فايز، يحيى بن حكم الغزال – رائد الحداثة والسخرية في الأندلس (بحث غير منشور)، جامعة حيفا، حيفا 2000 .

8- زكريا، فؤاد "الأصالة والتراث"، فصول ،م1 ع1 (1980)، ص25 – 30 .

9- السقا، مصطفى، المختار من الموشحات الأندلسية، دار الكتب المصرية، القاهرة 1997.

10- الشكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي – موضوعاته وفنونه، ط4 ، دار العلم للملايين، بيروت 1979 .

11- شلبي، سعد إسماعيل، دراسات في الأدب الأندلسي، دار نهضة مصر، القاهرة، 1973 .

12- عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة، ط7 ، دار الثقافة، بيروت 1985.

13- عتيق، عبد العزيز، الأدب العربي في الأندلس، ط2 ، دار النهضة العربية، بيروت، 1976.

14- غومث، غارثيا،الشعر الأندلسي، تر . حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956.

15- كراتشكوفسكي، أ ، تاريخ الأدب الجغرافي، تر. صلاح الدين هاشم، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

16- كراتشكوفسكي، أ، الشعر العربي في الأندلس، تر . محمد منير موسى، عالم الكتب، القاهرة 1971 .

17- كيلاني ، كامل، نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1924 .

18- ليفي بروفنسال، أ، سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها، تر. م. ع. شعيرة، المطبعة الأميرية، القاهرة 1951 .

19-المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،ج7 ، ط. البابي الحلبي، القاهرة د. ت.

ب- المراجع الأجنبية:

20- Al-Jayyusi , S. K.,the Legacy of Moslim Spain, E. G. Brill, Leiden- New york – Kolen 1992.

21- Levi Provencal , E., “Un Echange dAmbassades Entre Cordoue et Byzance au Lxe Siecle” , Byzantion , (1964) , pp 1-24.

22- Miranda , huici , “Al-Ghazal” , E.I 2 . , Vol.2, pp. 1038.

23- Monroe J. T., Hispano Arabic Poetry, University of California, Press, Berkely- Los Angeles- London 1974.

24- Peres. H., La Poesie Andalouse en Arabe Classique au 11 Siecle, Deuxieme Edition, Librarie dAmeriqui et dOrient, Paris 1953.

25- מונרו , ג . ט., ״השירה הספרדית , ערבית בתקופת החליפות של קורדובה״ ., הספרות , 21 (1975).